تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا باﷲ جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم { لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم } أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل قاله الضحاك وغيره كقوله تعالى : { أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات اﷲ وصدف عنها } وكقوله تعالى : { وإن كانوا ليقولون * لو أن عندنا ذكرا من الأولين * لكنا عباد اﷲ المخلصين * فكفروا به فسوف يعلمون } قال اﷲ تعالى : { فلما جاءهم نذير } وهو محمد صلى اﷲ عليه وسلّم بما أنزل معه من الكتاب العظيم وهو القرآن المبين { ما زادهم إلا نفورا } أي ما ازدادوا إلا كفرا إلى كفرهم ثم بين ذلك بقوله : { استكبارا في الأرض } أي : استكبروا عن اتباع آيات اﷲ { ومكر السيئ } أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل اﷲ { ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله } أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال ابن أبي حاتم : ذكر علي بن الحسين حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن رسول اﷲ صلى اﷲ عليه وسلّم قال : [إياك ومكر السيء فإنه لايحيق المكر السيء إلا بأهله ولهم من اﷲ طالب] وقال محمد بن كعب القرظي : ثلاث من فعلهن لم ينج حتى ينزل به : من مكر أو بغى أو نكث وتصديقها في كتاب اﷲ تعالى : { ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله } { إنما بغيكم على أنفسكم } { فمن نكث فإنما ينكث على نفسه } وقوله D : { فهل ينظرون إلا سنة الأولين } يعني عقوبة اﷲ لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره { ولن تجد لسنة اﷲ تبديلا } أي لاتغير ولا تبدل بل هي جارية كذلك في كل مكذب { ولن تجد لسنة اﷲ تحويلا } أي { وإذا أراد اﷲ بقوم سوءا فلا مرد له } ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد واﷲ أعلم